المحور الثامن: المظاهر الحضارية في نوميديا -الحياة الاجتماعية والثقافية-

I.الجانب الاجتماعي:

1.مكونات المجتمع المغربي:

نجد في النصوص الإغريقية أسماء عدد من المجموعات القبلية في تعداد شعوب الشمال الافريقي ما قبل الاحتلال الروماني، وتدل هذه الأسماء على مجموعة قبائل محكومة بروابط التقاليد والعادات وخاصة القرابة، وقد سجل المؤرخون والجغرافيون القدامى أسماء ومناطق هذه الشعوب، وأبرزها هي[330] :

النوميد: (Numidi)

لا نعرف متى انقسم النوميد إلى ماسيل " Massyles" في الشرق "العائلة الملكية الماسيلية وعاصمتها سيرتا" وماسيسيل "Masaesyles" في الغرب "العائلة الملكية الماسيسيلية وعاصمتها سيقا " Siga" " لتعود إليهما الوحدة بعد كفاح وصراع مرير، وقد بدأت النصوص القديمة تذكر النوميد بهذا الاسم منذ القرن الثاني ق.م.، كشعب وكقوة سياسة تبسط سيادتها على منطقة واسعة تمتد من حدود قرطاج شرقا إلى وادي مولوشا "ملوية" غربا هذه القوة السياسية هي مملكة نوميديا الموحدة التي امتدت حدودها الشرقية في عهد ماسينيسا "203-148 ق.م." إلى السيرت الكبير ولكن حدود هذه المملكة كادت أن توحد الشمال الأفريقي القديم، وأخذت في التراجع بعد وفاة ميسيبسا "مكوسن 118 ق.م."، في أعقاب الانقسام والصراع على العرش الذي كانت روما تغذيه لإضعاف المملكة ثمّ الانقضاض عليها في الوقت المناسب.[331]،

المور: (MAURI)

استعمل الجغرافيون الإغريق هذا الاسم للدلالة على سكان أقصى الشمال الأفريقي غربا ما بين وادي مولوشا "ملوية" والمحيط الأطلنطي، وقد أخذه عنهم الرومان واستعملوه للدلالة على مملكة بوكوس وأبنائه (التي استلمها يوبا الثاني وابنه بطليموس فيما بعد) وعلى المقاطعة التي أقاموها على أنقاض تلك المملكة بعد ضمهم لها وقد حاول عدد من المؤرّخين البحث في أصل ومدلول هذا الاسم وأرجعه البعض إلى أصل كلمة ماهوريم (Mahurim) التي تعني في رأيهم أهل الغرب، ويستنتج من سترابون أنّ اسم ماوري (Mauri) كان مستعملا من طرف الأهالي والرومان مما جعل البعض يقاربه بكلمة (Tamurt) التي تعني الأرض أو البلد كما

هو معروف، خاصة وأنّ المصادر ذكرت وجود قبيلة أهلية في ناحية مولوشا اسمها ماوري (Mauri)، اعتبرها بعض المؤرخين كنفدرالية قبلية انبثقت منها المملكة الموريتانية ، وسنرى كيف أنّ اسم المور وموريتانيا خلال الفترة الرومانية أصبح يحمل دلالة إدارية، ولكن الاسم سيعمم خلال الفترة البيزنطية على كلّ جماعات الشعب البربري التي حافظت على أعرافها ونظمها الاجتماعية والسياسية من خليج السيرت إلى المحيط[332].

الباوار: (Bavares)

أو البابار في بعض النصوص والصيغة ليست بعيدة عن بربر، الاسم الذي روجت له النصوص العربية خلال القرون الوسطى، وصفتهم النقوش اللاتينية بالشعب الكبير (Gentis multus). ظهر هؤلاء الباوار على مسرح الأحداث خلال القرن الرابع الميلادي، وينقسمون إلى الباوار الغربيين (ناحية مسيردا شمالي تلمسان) والباوار الشرقيين في منطقة البابور إلى مشارف كويكول وميلة (القبائل الشرقية) وفيهم الجبليون المستقرون والبدو الرحل، وهو ما جعل بعض الدارسين يميل إلى أن الباوار الغربيين هم أجداد قبائل مسيردا ، والباوار الشرقيين هم أجداد جبلي كتامة في القبائل الشرقية، أما البعض الآخر فيرى بأن الباوار شرقيين وغربيين هم أجداد البدو الكبار من الزناتيين وأن مجالات انتجاعهم هي السهول العليا من سطيف إلى ملوية[333].

البقواط: (Baquates)

قبائل ذكرتها النصوص الأثرية والمصادر الأدبية والبقواط في تعداد شعب أشارت النصوص القديمة إلى مواطنهم من وادي ملوية إلى المحيط ما بين فوليبيليس (وليلي أو آليلي) إلى الأطلس الأوسط، ولكنّهم كانوا على صلة تعاون وتحالف مع قبائل الباوار في المنطقة ما تلمسان و مسيردا ، وقد استمرت هذه القبيلة في إقليمها إلى الفتح الاسلامي. وذكرتها المصادر العربية باسم برغواطة وكان لها نشاط ملحوظ في عهد الولاة[334] .

الجيتول: (Gaetulii)

ظهر اسم الجيتول منذ نهاية القرن الثاني ق.م.، للدلالة على مجموعة قبلية كبيرة ولكنها لا تمثل عرقا متميزا، فالجيتول نوميد في منطقة الصحراء الشرقية ومور في الجنوب الوهراني والمغربي، يعيشون حياة التنقل والترحال وينتجعون ما بين القرامنت شرقا إلى المحيط غربا ويعبرون جبال الأطلس الصحراوي مرتين

خلال السنة، من الجنوب إلى الشمال خلال الربيع ومن الشمال إلى الجنوب خلال الخريف، ويصلون في انتجاعهم إلى السهول العليا بالقرب من سيرتا، ولعلّ حياة البداوة هي التي جعلتهم لا يقيمون دولة مع أنهم شعب محارب ميّال إلى الحياة العسكرية، وذكرت النصوص أن هانيبال جند منهم عددا هاماً، ومثله فعل القائد الروماني ماريوس فقد كانوا في تعداد شعب كبير ومن أقوى الشعوب الليبية، وتشترك المصادر في تحديد موطنهم مابين الأثيوبيين جنوبا والمور شمالا[335].

2.نمط المعيشة:

يستخلص من الوثائق الأثرية والتراث القديم بما فيه من تقاليد وعادات بأن مجتمع الشمال الافريقي القديم ظهر في شكله القبلي منذ فجر التاريخ، والنظام القبلي هو أول النظم التي عرفتها مختلف الشعوب، وعندما تتحول القبيلة إلى قوة سياسية ستظهر الدولة، وكثيرا ما يكون جد القبيلة الذي تحمل اسمه شخصية أسطورية أو رمزية[336].

ويمكننا أن نستخلص من تفسير النصوص استمرار هذه الثنائية في أنماط المعيشة بدو رعاة ومستقرون مزارعون. وربما كان امتهان الرعي وتربية الماشية أكثر انتشارا من احتراف الزراعة لدى النوميديين بصفة عامة خاصة قبل رواج الإنتاج الزراعي " القمح النوميدي بأسواق المتوسط: اليونان وإيطاليا خاصة " ابتداء من القرن الثاني قبل الميلاد[337].

أ.البدو: كانت الحياة القروية أول شكل من اشكال التجمع السكاني، حيث تعود الى أواخر العصر النيوليثي استنتاجا من الأثريات، والملاحظ أن السكان كانوا يختارون أماكن التمركز القروي لتوفر المياه والحصانة الطبيعية[338]، ويقول بلين أن الحياة القروية هي الطابع المميز لعموم الليبيين في القطر القرطاجي، ويميز الحياة في الأرياف تجمع قبلي يرأسه شيخ القبيلة أو العشيرة[339].

ب.الحضر: ارتبط ظهور المدن بمجيء البحارة الفينيقيين للمنطقة، ويتمثل ذلك على الخصوص في المدن الثلاث "سيرتا دوقة وتيفست" التي هي مدن ليبية ماسيلية نوميدية في الأساس، وفي وقت لاحق تطورت الحياة

الحضرية بالاحتكاك بالقرطاجيين ثم الرومان، ونتيجة لهذا الانصهار الروماني ظهور طبقات في المجتمع كالأرستقراطية والكادحة التي صورتها أثارهم كالألواح الفسيفسائية [340].

3.الاسرة:

العائلة الافريقية (البربرية) هي عائلة زواجية، وتنشأ عن هذه الرابطة الزواجية روابط القرابة (الامومة الابوة البنوة الاخوة المصاهرة)، يعيش افرادها متضامنين في مسكن واحد، وتحكمها الاعراف والتقاليد والقوانين وأصول التربية، و العائلة البربرية هي عائلة أغناطية أبوية (تنتمي للنسب الأبوي)، و ممتدة تشمل ثلاثة أجيال الجد الابناء الاحفاد والسلطة تكون فيها للأكبر سنا، [341]، اما عن الابناء فلم تشع ظاهرة التبني والحادثة الوحيدة لذلك كانت مع مكيبسا الذي تبنى ابن اخيه يوغرطة وجاء ذلك لغرض سياسي بحت[342]،ولا ريب أن هذا النظام الأسري كان الشكل الأرقى الذي بلغه المجتمع بعد مراحل طويلة من التطور الاجتماعي الداخلي.

4.الزواج:

يعتبر الزواج تقليدا قديما في المغرب القديم حيث أشار هيرودوت إلى حفلات الزواج عند الليبيين، ويتم الزواج في سن مبكرة، ويشترط على الفتاة العذرية لنقاوة النسب، والزوج هو رأس العائلة حيث تنتقل الزوجة لبيته، ويلزمها العرف بالخضوع والوفاء لزوجها، كما وجدت ظاهرة تعدد الزوجات ولكن على نطاق ضيق، ولم يعرف المجتمع المغاربي القديم طبقية مقننة تحصر الزواج في طبقة أو أسرة، وكان أساسه الاتفاق بين العائلتين وليس باتفاق معزول بين الرجل والمرأة [343].

5. مكانة المرأة:

كانت للمرأة مكانة مرموقة في المجتمع المغاربي القديم، ولم يقتصر دورها في الأسرة بل القيام بدور هو حكر على الرجل لدى أمم أخرى، مثل القيادة العسكرية والسياسية، كما يمنع العرف الاختلاط بالرجال، لذلك لم تكن تتسوق الا المتقدمات في السن اللاتي كن يمارسن حتى التجارة أما الفتاة فتمنع من الخروج من المنزل بعد بلوغها [344].

II.الجانب الثقافي:

1.اللغة:

إن اللهجات القبائلية والشاوية والميزابية والشنوية والتارقية والشلحية، التي مازالت منتشرة في الجزائر والمغرب الأقصى، مشتقة من اللغة الليبية القديمة، اللغة المشتركة لأسلافنا، وقد استطاعوا نقلها إلينا رغم عواقب الدهر والمنافسة التي تعرضت لها عبر التاريخ من لغات دخيلة " بدءا من الفينيقية و اللاتينية والاغريقية "[345]، وقد تميّز المغاربة القدماء عن جميع الوافدين من الفينيقيين وأحفادهم البونيين والرومان بلهجتهم الخاصة[346]، ويفيد المتخصصون ان اللغة الليبية من أقدم اللغات، حيث بدأت تتميز في بلاد المغرب منذ حوالي 8000-7000 سنة مع بداية العصر الحجري الحديث والاوسط[347].

2.الكتابة:

كانت توجد في البلاد المغاربية كتابة خاصة، استخدمت من طرف الممالك المحلية كلها، كما استخدمها المواطنون، وهي تحوي 23 حرفا، على ما يذكر الأسقف فولجانتيوس، وتعرف بالكتابة الليبية واحيانا النوميدية، ومنها اشتقت الكتابة التيفيناغية[348]. وقد اختلفت اشتقاقات الكتابة الليبية، حيث حاول المتخصصون ايجاد اشتقاق لها من الكتابة الفينيقية، وقد وجدت في النصب الجنائزية[349]، ويعد نصب دوقة المزدوج البونيقي الليبي أول وثيقة ليبية مؤرخة بدقة تعود إلى 139 ق.م، وهو عبارة عن كلمة إهدائية من معبد أقيم لماسنيسا في عهد مكيبسا، وكذا نصب آخر مزدوج يخلِّد إقامة ضريح يعود الى نفس الفترة[350]، ونصوص أخرى في مناطق بلاد المغرب مثل جنوب وهران والمغرب الاقصى واقليم طرابلس وبرقة ومناطق متفرقة من الصحراء[351].

كما تعد الكتابة الليبية صوتية، وليست مقطعية مثلما هو في الكتابات القديمة الأخرى، حيث اكتملت شروط كتابتها في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد وتضم 23 حرف[352]، ومنها اشتقت التيفيناغ (Tifinagh)، أقدم شكل منها حسب فيفريي انها عمودية تقرأ من الأسفل الى الأعلى، ووجدت مصفوفة افقيا وتقرأ من اليمين الى اليسار كما هي حال التيفناغ، ويقول فيفري انها انتقالية من الليبية القديمة الى التيفناغ[353].

ويرى فريدريك بأن الكتابة الليبية نشأت نشأة مستقلة، ولا شيء يشركها بالكتابات السامية غير المبدأ وذلك : " لعدم تطابق أحرفها مع أية حروف سامية، أنها تدون الحروف الساكنة الأولية، وأن حروفها مرتبة من الأسفل إلى الأعلى[354] ".

3.الديانة:

كانت بيئة بلاد المغرب القديم متنوعة التضاريس والمناخ، وذلك ما أوحى للإنسان الأفريقي القديم كغيره بالكثير من الأوهام التي بنى عليها معتقداته وصاغ منها طقوسا وشعائر رافقت حياته أجيالا طويلة، مثله مثل الانسان في باقي الشعوب[355] ، فقد عبد الليبيون القدماء آلهة محلية وآلهة أخذوها على الشعوب التي وفدت للمنطقة، فنجد هيرودوت يتحدث عن آلهة محلية عبدها الاهالي تمثلت في الشمس والقمر[356].

كما عبدو آلهة استقدمت من الشرق مع القرطاجيين مثل "بعل حامون" و "تانيت" اللذان انتقلا بنفس المكانة التي كانت في قرطاجة إلى مجتمع الآلهة البوني[357]، كما عبد المغاربة القدامى آلهة الاغريق والرمان مثل: الكبش "آمون "[358] والعجل "قوزيل" والأسد والتنين " دراكون" وآلهة قورينة مثل "جوبتر آمون" [359].

وقد اتخذوا لهذه الآلهة معابد طبيعية في البداية في سفوح الجبال والكهوف ثم تطورت الى اشكال مبنية مثل معبد الحفرة في "قيرطا" الذي يعود للقرن 3 ق.م، وعينت هيئة كهنوتية لإقامة الطقوس الدينية مثل الكاهن الأكبر وكبير الكهنة والكاهنة ورئيسة الكاهنات.

وتشير بعض النقوش والنصوص لوجود أعياد في كامل افريقيا مثل: " اليوم المبارك السعيد " الذي وجد منقوش في دوقة ويوم "نعيم ومبارك" الذي يشير إليه نقش من معبد "تبرسوق".

أما عن الطقوس أشار هيرودوت إلى تقديم الأضاحي وفق مراسيم محددة، ومن ضمن القرابين بواكير الفاكهة الحلويات الخمور والزيوت والعطور، وكذا بعض الأشياء التي تستخدم لتزيين أو تأثيث المعبد مثل المصابيح... [360].

كما تنوعت قبورهم كثيرا، البعض عبارة عن غرف محفورة في الصخر، والبعض الأخر مبني بأحجار ضخمة وهي معروفة "بالدولمن"، أما قبر مكثر اكتشفه" بوفيلى" فهو نموذج فريد من القبور "الميقالتية "

يتشكل من سلسلة من الغرف فوق بعضها البعض مغلقة كليا، كل واحدة منها مسبوقة بشكل مدخل، تتصل به عبر ممر محفور تحت الواجهة مفتوح على فناء مغطى يصل اليه عبر درجات، بالإضافة الى قبور الشوشت التي وجدت في التل والصحراء، وهي قبور مستديرة او هرمية البناء تغطي ضريح، وكذا البازينة في التل والصحراء والحوانيت[361]، وربما هذه الأشكال البسيطة، هي التي تطورت إلى قبور ملكية ضخمة تسمى "المدراسن" وقبر الرومية، وضريحا الخروب ودوقة، متأثرين بالبونيقيين والرومان والاغريق[362].

4.الفنون:

النماذج المتبقية من العمارة النوميدية في مجملها معابد وأضرحة، وتقع خارج المدن، وهو ما يفسر دوامها، ومن بين المعابد التي شيدوها "معبد شمتو" الذي ببنائه الملك "مكوسان" على عشر مراحل من المدينة الملكية في "بولا ريجيا" على أعلى قمة جبل المرمر ومعبد "القليب" [363].

أما عن الأضرحة فقد تجلت بصمة العمارة النوميدية بشكل واضح فيها، مثل الاضرحة الملكية "المدراسن "بالاوراس الذي يعود للقرن الرابع قبل الميلاد، ويعد أكثر اصالة في هيئته الاساسية وفي حجمه، وأضرحة الملوك "المور" في غرب مدينة تيارت المعروفة محليا "بلجدار"[364]، وكذا قبر الرومية في تيبازة ارتفاعه 33م ويمكن ان يصل إلى 40م[365].

أما بالنسبة لما يسمى بالفنون الصغرى فهي أكثر تنوعا، فمن النقش إلى النحت والرسم على الفخار.....[366]، فمن الاواني المزينة والملونة، إلى زخارف هندسية معقدة اشكالها مثلثات مربعات خطوط هندسية تحمل عناصر نباتية او حيوانية وبشرية ، وهو ما يميز عموما كل الفن الزخرفي البربري[367].